الاستشراق بين المصطلح والنشأة

أ.عبد الحليم محمد

جامعة الجيلالي اليابس

سيدي بلعباس

-الإستشراق:

قلّ ما نجد من الباحثين الذين جعلوا من الاستشراق موضوعا لدراستهم يعطون تعاريف مباشرة دونما يتطرق أحدهم إلى بداياته الأولى وأسباب نشأته بل وحتى كواليس مخاضه.

لقد أصبح الاستشراق اليوم علما له كيانه ومنهجه، ومدارسه وفلسفته ودراساته ومؤلفاته، وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته[1] وعليه كان لزاما على أي باحث فيه أن يعنى بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة ومراحله وأطواره وتطلعاته، غير جاهلين خصائصه ومن ثم إبراز أهدافه ووسائله ليتبين الطريق ويتبصر الأمر، ويتعرف على المعالم والحقائق، فيكون على بينة من أمر يمسه في حياته.

إذن ما ماهية الاستشراق؟ وموضوعه ومن هو المستشرق؟ وما حقيقة مهنته؟ وما المحفز أو الدافع لاهتماماته بهذا الفرع من المعرفة؟

المتتبع لكل هذا وذاك من الأسئلة يجد أنها أسئلة سوف لن يتفق فيها الجميع وأن إجابتهم عنها ستكون بدرجات متفاوتة، والمهم إذن أن نخلص إلى تعريف جامع مانع, نتعامل فيه مع النصوص لنوفق بين الآراء والأفكار.

لغة:

إنّ الكلمة في مفهومها اللّغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة [2] ولكنه عندما ينظر إلى معناها الحقيقي استنادا إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق، حيث يبدوا أن معنى(مستشرق) أدخل نفسه في أهل الشرق, أصبح منهم[3].

جاء في المعجم الوسيط أن كلمة "شرَّق" أخذ في ناحية الشرق. يقال شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت، والشّرق: الشمس وجِهة شروق الشمس"[4].

إذن كلمة الاستشراق لفظة مولدة من لفظ (استشرق) المأخوذة من مادة "شرق" أي مستشرق[5].

وعليه فالكلمة استعملت ترجمة لكلمة "Orientalism". التي تدل على معنى (مستشرق)، أما المحققون فيستعملون بدلا منها (علماء المشرقيات).[6]

اصطلاحا:

إذا أردنا أن نحدد مفهومه الاصطلاحي فيجب كما يقول الدكتور يحي مراد أولا أن ننظر إلى المعاجم الحديثة، ثم إلى رأي علماء الغرب وعلماء العرب، هذا حتى يستطيع الباحث في هذا الفن أن يخلص إلى وضع تعريف محدد.

ثم يذهب مالك بن نبي في مصنفه إنتاج المستشرقين أنه يجب علينا أن نحدد المصطلح أي ماذا نعني بالمستشرقين، حيث يعتقد أن المستشرق هو الكاتب الغربي الذي يكتب عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية.[7]

وهو في مؤلفه يصنف أسماء المستشرقين إلى صنفين:

أ من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل "جربر دورياك" والقديس "توماس الأكويني" وطبقة المحدثين مثل "كاره دوقو و جولد تسيهر".

ب من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها.

ومن هذا يتبين لنا أن لفظ "الاستشراق" يطلق على معرفة ودراسة اللّغات والآداب الشرقية، ويطلق لفظ "المستشرق" على الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته.

فالاستشراق إذن دراسة يقوم بها غير الشرقيين لتراث الشرق، هذا من حيث المفهوم الواسع[8].

والذي يعنينا كما يؤكد ذلك الدكتور محمود حمدي زقزوق[9]"هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي، عندما يطلق لفظ "استشراق" أو "مستشرق" وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنين".

ومما يزيد من ضرورة هذا التفاهم أن الاستشراق قد تخطى حدوده إلى ميادين أخرى مستقلة عنه، حيث إن المستشرق يشارك عمله عالم الآثار، والحفريات، والمؤرخ، وعالم الصرف، والاشتقاق، وعالم الأصوات، والفيلسوف، وعالم اللاهوت، والموسيقي والفنان.[10]

أما عن كلمة "استشراق"، فبالإضافة إلى تعريف مالك بن نبي [11] يقول آخر أن المستشرقون هم من يعنون بالبحث في لغات الشرق وعلومه[12].

ومثل هذا الرأي يراه منير البعلبكي في قاموس المورد أن المستشرق هو الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته[13].

أما قاموس أكسفورد الجديد فيحدد المستشرق بأنه: "من تبحر في لغات الشرق وآدابه"[14].

وآخر تعريف لكلمة مستشرق سيكون من حظ إدوارد سعيد[15] الذي يرى في مؤلفه (الاستشراقOrientalism) "إن لفظ الاستشراق لفظ أكاديمي صرف، والمستشرق هو كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه, كل ما يعمله المستشرق يسمى استشراقا".

نخلص من هذا كله أن الباحثين قريبون جدا في تحديد المستشرق وتعريفه بأنه كل من تخصص في دراسة الشرق أو جانب من جوانب علومه المختلفة، لكن الأمر المختلف فيههو عدم إقرارهم بهوية الذي يمكن أن يسمى "**مستشرقا**".

نرى منهم من يخصص الكلمة لكل من خاض في دراسة الشرق ولا يهم إن كان غربيا أم شرقيا. ومنهم من يخرج الشرقي من دائرة المستشرقين باعتباره غير غريب عن الشرق الذي هو بصدد دراسته.

ولكن مادام أن كل الدراسات والبحوث التي أنجزت من طرف هؤلاء كانت في بدايتها ذات طابع حاقد وفيه من المكر ما فيه؛ فالمستشرق هومن تخصص في دراسة الإسلام والعرب من غير المسلمين.[16]

هذا ما جعل المسلمين يطلقون لفظة مستشرق على كل من تناول علومهم ومعارفهم وحضارتهم بالبحث والتحليل.

ولعلنا بعد هذا نخلص إلى النتائج التالية:

أولا: أن الاستشراق علم يهدف أصحابه من ورائه دراسة كل ما يتعلق به من لغات ومعتقدات وعلوم وفنون.

ثانيا: أن المعنى الأصلي لكلمة "استشراق": صار شرقيا وصيغة المستشرق تطلق على الدارسين الغربيين الذين يشتغلون بالعقليات الشرقية.

ثالثا: أن المستشرق عالم وباحث غربي في الأصل والانتماء أفنى اهتماماته في الدراسات الشرقية على الإطلاق.

رابعا: أن الاستشراق علم ذو حدود واسعة، وأحيانا غير واضحة إذ يختلط ميدانه بميادين أخرى.

خامسا: أن المعنى الذي ينصرف إليه الذهن عندما يطلق لفظ(مستشرق) هو الذي يعنى بالدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي.

"ولكن يمكن القول إن الاستشراق في دراسته للإسلام ليس علما بأي مقياس علمي، وإنما هو عبارة عن "إيديولوجية "خاصة يراد من ورائها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات."[17]

-متى ظهر الإستشراق وكيف تطور:

كثيرة هي الآراء التي أشارت إلى البدايات الأولى عن الاستشراق، فظهر لكثير من المفكرين العرب والمسلمين دراسات وكتابات متعددة ومختلفة، ولكنها كانت في البداية جهودا فردية وعفوية، لم يجمع الرأي فيها في مؤتمر علمي منظم حتى نتعرف على صائب الآراء، من هنا صعب على الباحثين التعرف على التاريخ بدقة والتحديد.

إن كلمة" الاستشراق" تطلق عرفا على حركة ثقافية عرفتها أوروبا خاصة في القرن الثاني عشر للميلاد–القرن السادس للهجرة، لكن لهذه الحركة جذورها الممتدة في الماضي إلى أبعد من ذلك.

والاستشراق ظاهرة ارتبطت بالعلاقات التاريخية الحضارية بين الشرق والغرب منذ كان الصدام بينهما إثر الفتوحات الإسلامية، حيث جاء تعبيرا عن الخلفية الفكرية لهذا الصراع.[18]

والسبب في هذا أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار، لأن المسيحيون رغبوا في التبشير بدينهم بين المسلمين.

"ومن جهة أخرى رغب المسيحون في التبشير بدينهم بين المسلمين، فأقبلواعلى الإستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي، واعتمد عليهم في بسط نفوذهفي الشرق"[19].

إلا أننا سوف لن نخوض في هذا الغموض حتى لا نطيل الكلام وننصرف عن لب ما نحن بصدد دراسته.

إذن أقول، البعض يرى أن الإستشراق ظهر مع ظهور الإسلام وأول لقاء بين الرسول صلى الله عليه و سلم ونصارى نجران، أوقبل ذلك عندما بعث الرسول ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، أوحتى في اللقاء الذي تم بين المسلمين والنجاشي في الحبشة.

بينما يعزوا بعضهم نشأة الإستشراق إلى صدر الإسلام بسبب احتكاك المسلمين بالرومانفي غزوة مؤتة وغزوة تبوك، ومن يومها وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية.[20]

ولكن الذي يذهب إليه الدكتور علي النملة أن كل هذه تعد من قبيل الإرهاص للبداية الحقيقيةللاستشراق.

لا شك أن هذا العلم– الإستشراق–، الذي أصبح ينتج ويألف ما يزيد عن ألاف الكتب سنويا والدوريات، ويقيم المؤتمرات العالمية السنوية ناهيك عن الندوات الإقليمية، لا يمكن أن تكون هذه هي بدايته.

لم تكن بداية الإستشراق في مراحله الأولى بداية منظمة ورسمية، ومحددة، كما كان عليه الحال مثلا بالنسبة لظهور الاستعمار. "فالإستشراق بدأ يظهر بشكل انفرادي وتدريجي من طرف أفراد أوروبيين، رهبانا ومغامرين استهوتهم الدراسات الشرقية واحلام الشرق "[21].

وكذلك تم عن طريق الاحتكاك عن قرب مع الأندلس، فكان الاستشراق في بدايته اجتهادا وجهدا فرديا يتم دون تنظيم أوإشراف مؤسسات ترعاه وتؤطره وتسهر عليه، وتخطط له، وتوظف رجاله حسب حاجاتها ورغباتها كما أصبح عليه الحال لاحقا.

فظهر الاستشراق بشكل غير رسمي يصعب التحكم فيه والتأريخ له بدقة، إذ لا يعرف بالضبط من هوأول غربي عني بالدراسات الإستشراقية ولا حتى كان ذلك[22].

لقد أدى انتشار الإسلام بتلك السرعة في أقطار المشرق والمغرب إلى لفت أنظار الكثيرمن النصارى ورجالات الدين وتحولهم صوبه ومن تم بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته.

يقول حمدي زقزوق:"من بين العلماء المسيحيين الذين أظهروا في وقت مبكر اهتماما بدراسة الإسلام –لا من أجل اعتناقه، وإنما من أجل حماية إخوانهم في الدين منه–كان العالم المسيحي **يوحنا الدمشقي** (676 م - 749م). ومن بين مصنفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين كتاب(محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)[23].

هناك من الباحثين من يجعل بداية الإستشرق في القرن العاشر الميلادي[24]. وأنه من المؤكد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس وتعلموا بها وتخرجوا من مدارسها، وهؤلاء كانوا أول طلائع للمستشرقين، ومن بين هؤلاء الأوائل الراهب الفرنسي **جربرديأورلياك** (938هـ-1003م)[25].

هذا ما أدى بالدكتور نجيب العقيقي أن يجعل كتابه عن المستشرقين– في اجزائه الثلاثة– سجلا للإستشراق على مدى ألف عام بدءا من الراهب الفرنسي جربر دي أورلياك الذي قصد الأندلس في إبان عظمتها ومجدها وتتلمذ وتثقف في مدارسها على أيدي علماء مسلمون في **أشبيلية** و**قرطبة** حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية في روما باسم**سلفستر الثاني**[26].

ويقرر هذا الرأي الدكتور مصطفى السباعي[27] في أن الباعث في نشوئه–الإستشراق– هوالحروب الصليبية التي كانت نتيجة الاشتباك السياسي والديني بين المسلمين والنصارى في الأندلس وبالأخص على إثر سقوط "طليطلة" عام 433 هـ-1085 م، والاستيلاء عليها من قبل النصارى.

إلى أن جاء عهد الاستعمار في القرن الثامن عشر، على العالم الإسلامي، للاستيلاء على خيراته وثرواته المادية والثقافية، فقد ظهرت فئة من هؤلاء الغربيين الذين تفرغوا تمامًا بالتعاون مع الاستعمار لنهب ثروات العالم الإسلامي العلمية والفكرية، والمتمثلة بالدرجة الأولى في الكتب والمخطوطات القيمة بأبخس الأثمان، مستفيدين من الفوضى العارمة في العالم الإسلامي، حتى بلغعدد هذه المخطوطات والوثائق العلمية في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد، والعدد يتزايد يومًا بعد يوم.

ولفظ "الإستشراق" غير قديم قدم "الشرق"، إذ ظهر حديثا مع بداية القرن التاسع عشر للميلاد، وهومصطلح عربي يعود للترجمة الإنجليزية لكلمة "Orientalism" التي ظهرت في بريطانيا عام 1811م وللمصطلح الفرنسي "Orientalisme" الذي عرفته فرنسا عام 1830م قبل أن يدرج رسميا في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة 1838م، ثم بعد ذلك انتشر هذا المصطلح بين بقية اللغات الأوربية الأخرى.[28]

وبتزامن مع ظهور وتداول مفهوم الإستشراق، تأسست أول مجلة إستشراقية متخصصة في أروبا، هي مجلة ينابيع الشرق التي أسسها: **جوزيف فون هامر**، والتي صدرت في فينا عام 1809م، ثم تلا ذلك ظهور الجمعيات الإستشراقية، وكانت أول جمعية ظهرت، هي الجمعية الآسيوية الفرنسية بباريس عام 1822م، ثم الجمعية الملكية الآسيوية في **بريطانيا** و**إيرلندا** سنة 1823م، والجمعية الشرقية الأمريكية سنة1842م، ثم الجمعية الشرقية الألمانية سنة 1845م[29].

وقد عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873موكان بداية لعشرات المؤتمرات التي بدأت تدرس أحوال العالم الإسلامي وطرائق الوصول إلى ثرواته، ودراسة نقاط الضعف والقوة فيه، مستعينة بالقوى الاستعمارية الكبرى،ولا تزال هذه المؤتمرات والندوات في أوجها حتى هذا العصر، والتي كانت من إحدى نتائجها الحرب الحالية على العالم الإسلامي، ومحاولة مسح

الهوية الإسلامية من الوجود وذلك باتهام المسلمين ومصادر تشريعهم [30]، لأن المستشرقين ذوو أغراض متعددة، يسلكون إليها بدراساتهم المسماة بالاستشراق، حسب المتغيرات. يقول الدكتور محمد خليفة حسن: "الاستشراق من أقدم الحركات الفكرية الغربية المستخدمة للعلم والمستغلة له، كوسيلة لدراسة الشرق من ناحية، وتحقيق تغريبه وفرض الهيمنة عليه من ناحية أخرى"[31] ولكن أنّى لهم ذلك.

الهوامش:

([1]) **يحي مراد، ردود على شبهات المستشرقين، من قضايا الاستشراق بحوث ودراسات، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، ص:23**

([2])**المصدر نفسه ص: 23**

([3]) **المصدر نفسه ص:23**

([4]) **إبراهيممصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحمجمعاللغةالعربية، دارالدعوة، دط، دت، مادة(ش ر ق)، ج1 ص469.**

([5]) **عمر بن إبراهيم رضوان، أراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره "دراسة ونقد"، الجزء 1، الطبعة الأولى، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1433هـ-1992م، ص23**

([6]) **المرجع نفسه، ج1، ص23 وما بعدها.**

([7])**مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، الطبعة 1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1388هـ-1969م، ص5.**

([8]) **سعد المرصفي، المستشرقون والسنة، د ط، مكتبة المنار الإسلامية، مؤسسة الرّيان، بيروت لبنان، ص9**

([9]) **محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط:1، دار المعارف للنشر، القاهرة، 1997، ص18.**

([10])**ينظر أحمد عبد الرحيم السايح، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الحديث، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1417 هـ- 1996م، ص11.**

([11])**إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: ص5.**

([12]) **محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، ط: 1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية، 1392هـ-أكتوبر1983م، ص58.**

([13])**المرجع نفسه، ص59.**

(14) ينظر مادة(Orientalist) في Oxford Advanced Learner's Dictionary, Fifth Impresion, Oxford University Press,England,1991,p873.

([15]-, Edward W. Said, Orientalism,British Library Cataloguing in Publication Data,25th edition, 1978, p140 .

([16]) **ينظر ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، مرجع سابق، ص.61**

([17]) **الاستشراق في ميزان نقد الفكر الحديث، ص12، 14 و15.**

(18)عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، سلسلة الرسائل الجامعية، العدد 21، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ، 1996م، ص16 – 17.

(19) الاستشراق في ميزان نقد الفكر الحديث، مرجع سابق، ص17

(20)ينظر النملة علي ابراهيم، الاستشراق في الأدبيات العربية، عرض للنظريات وحصر وراقي للمكتوب، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث الدراسات الإسلامية، 1414هـ–1993م من موقع:

http: //sh22y.com/vb/t48762.html

(21)الطيب ابن ابراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع، الجزائر، 2004م، ص30.

(22) مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، دط، المكتب الإسلامي، دت، ص 17 _18.

(23)ينظر نجيب العقيقي، نقلا عن حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفيّ الفكرية للصراع الحضاري، ص19.

(24)الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص20.

(25)الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر ص30. ومصطفى السباعي الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص17.

(26) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 20. كذلك مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ص17 وما بعده١.

(27)ينظر الاستشراق في الأدبيات العربية، كذلك الاستشراق والمستشرقون، ص17و18.

(28) جورج سارطون، الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، تر: عمر فروخ، ط الأولى، مكتبة المعارف، بيروت 1952م، ص 32–33.

(29) الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، ص28.

(30)الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص17–18.

(31)محمد خليفة حسن، أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1421هـ ص: 193